معهد مواطن للديمقراطية وحقوق الإنسان
Muwatin Institute for Democracy and Human Rights

# فاعلو التغيير المجتمعي

مقترح بحثي[1]

تموز 2025

## مقدمة

شهدت العقود الماضية تراجعاً في المشاركة السياسية من خلال الأحزاب، وتحولات في أشكال تنظيم المجتمع المدني. وقد تجلى هذا التغيير في أرجاء العالم، بما في ذلك في فلسطين. تركز الأدبيات التي تعنى بهذا الحقل على مفاهيم المشاركة المدنية (civic participation)، ومصطلحات مماثلة، مثل المجتمع المدني، والانخراط المدني (civic engagement). وتكمن أهمية دراسة هذا الحقل في العلاقة العضوية التي تُلاحظ بين المشاركة المدنية والديمقراطية الصحيّة. فعلى الصعيد العالمي، نلحظ تراجعاً مزدوجاً لكل من المشاركة المدنية والمؤسسات الديمقراطية.

تُعنى مفاهيم المشاركة المدنية والانخراط المدني بالأحزاب السياسية، والنقابات، والجمعيات التطوعية، وجميعها تشهد تراجعاً ملحوظاً في العضوية وعدد المنتسبين. وتُعتبر العلاقة بين الديمقراطية والمشاركة المدنية علاقة مباشرة، إذ تُعدّ المشاركة المدنية مركزية ليس فقط للديمقراطيات الصحيّة، بل أيضاً للروابط الاجتماعية والعلاقات المجتمعية السليمة.

لاحظ كثير من الباحثين هذا التراجع، وساهموا في دراسة ظاهرة المشاركة المدنية. يُرجع البعض أسباب هذا التراجع إلى ازدياد استهلاك البرامج المتلفزة، والتمدن المتوسع، وضغوطات الوقت والمال، والتغيرات المرتبطة بالفجوات بين الأجيال.[2] فيما يرى آخرون أن التصنيع، والتحضّر، وتركيز السلطة بيد الدولة هي من الأسباب التي تؤدي إلى العزلة والاغتراب الفردي بفعل مركزية الدولة غير المنضبطة[3]. وهناك من يرى في صعود جماعات المناصرة المدفوعة والتي تُدار بطريقة مهنية وشكلت بديلاً عن المنظمات القاعدية القائمة على العضوية سبباً رئيسياً لتراجع المشاركة الحزبية، وذلك في بيئة تطغى عليها "الثقافة المدنية من الأعلى إلى الأسفل"، والتي يهيمن عليها رجال الأعمال والنخب المهنية[4]. وأخيراً، يرى البعض أن النمط الاستهلاكي ووسائل الإعلام الجماهيرية تقف وراء هذا التراجع[5]. وعلى الرغم من تباين ما تستنتجه هذه الدراسات، إلا أنها تتقاطع في الإشارة إلى تزايد الاغتراب نتيجة التحولات في أشكال التنظيم ضمن إطار أوسع من السلطة البنيوية. المصطلحات المستخدمة في الحقل عديدة. ففي فلسطين، يسود استخدام مفهوم "المجتمع المدني" وامتداداته ذات العلاقة، والتي تشمل "منظمات المجتمع المدني" (CSOs)، و"المنظمات المجتمعية القاعدية" (CBOs)، و"المنظمات غير الحكومية" (NGOs)، وظاهرة "الأنجزة" (NGOisation) – في إشارة إلى استئثار نمط تنظيم معين على مبادرات النشاط المدني. ويلاحظ ميل الأدبيات في أميركا الشمالية إلى مصطلحات "المشاركة المدنية" و"الانخراط المدني". في هذه الدراسة،

---

[1] المؤلف الرئيسي لهذه المسودة هو عمر قسيس، حيث طور جهود جماعية قام بها باحثو معهد مواطن، وبشكل خاص فارس الشوملي، ودانا فراج اللذان عملا على مسودات سابقة لمفهمة وتصميم مشروع البحث بعنوان "فاعلوا التغيير المجتمعي"، ومضر قسيس الذي يشرف على هذا المشروع.

[2] Putnam, *Bowling Alone*. Chapter 15.

[3] Nisbet, *The Quest for Community*.

[4] Skocpol, *Diminished Democracy*. Chapters 4-5.

[5] Habermas, *The Theory of Communicative Action*.

نستخدم المصطلحين بالتبادل في البداية، بسبب التقاطع في وظيفتهما الأساسية المتمثلة في وصف الفضاء الذي تستخدمه الجمعيات والنقابات فيما يُعرف بـ"التوسّط بين الدولة والشعب".

وبغضّ النظر عن الفروقات الدلالية، فإن هذا البحث يستند إلى ملاحظة وجود تراجع في عضوية الأحزاب السياسية والجمعيات التطوعية وفي أنشطتها في فلسطين، وإلى أن هذا التراجع جزء من ظاهرة عالمية أوسع. ومن هنا، يهدف هذا المقترح إلى البحث عن سبل العمل المنظم الهادف إلى التغيير المجتمعي، وعن الشكل الممكن لتنظيم الفاعلين على إحداث هذا التغيير. لذا، فإننا نعرّف فاعلي التغيير المجتمعي بوصفهم موضوع البحث الأساسي.

لهذا الغرض تم توسيع المصطلحات وتكييف التعريفات بغرض استخدامها الإجرائي، حتى لا تهيمن المصطلحات أو المناهج أو الأطر النظرية على حقل البحث. بل إننا نُطوّر منهجية مخصصة ونسائل المصطلحات، مع إعطاء الأولوية للفهم بدلاً من إخضاع البحث للبراديغمات التي ربما كانت جزءً من أسباب انحسار عملية التغيير المجتمعي من الأسفل في العقود الأخيرة.

المقترح هنا هو إعطاء الأولوية للفهم وليس للتأطير، وصولاً إلى تعريف البنى السياسية-الاقتصادية العالمية التي تشكّل سياقاً للظروف المحلية. ومن هناك، سنبحث في كيفية دراسة أشكال التنظيم الاجتماعي - السياسي، من حيث الشكل، والوظيفة، والبنية، والتقنيات، والتشكيلات النطاقية. وأخيراً، الوقوف على منهجية مناسبة لدراسة سمات فاعلي التغيير المجتمعي في فلسطين، وسبل فعلهم، وأشكال تنظيمهم الممكنة.

## الفجوة (Interregnum)

قد يُخيَّل للوهلة الأولى أن مصطلح "فاعلو التغير المجتمعي" يدل على النقابات، ومنظمات المجتمع المدني، والمجموعات الشبابية، وائتلافات المنظمات، واللجان الشعبية، وأنوية الحركات الاجتماعية وما شابه. غير أن هذا الفهم مختزل ويحجب رؤية الصورة الكاملة. إن الافتراض أن هذه الكيانات المؤسسية (بالمعنى الفيبري) هي حصراً الجهات المكلّفة بإحداث التغيير المجتمعي غير صحيح، فلا يمكن حصر فاعلي التغيير المجتمعي في منظمات المجتمع المدني وحدها. وعلى العكس، فإن التغيير الذي أحدثته هذه المنظمات محدود كماً ونوعاً.

تشير نظرة سريعة إلى الحقل إلى أن المنظمات السياسية والمؤسسات الاقتصادية ومؤسسات السلطة السياسية لعبت أدواراً مركزية في التحولات (على اختلاف اتجاهاتها) التي مرت على المجتمع الفلسطيني. بشكل خاص برزت أدوار الأحزاب السياسية والفصائل (بما في ذلك الإسلامية) في الفترة السابقة لنشوء السلطة الفلسطينية والتحولات التي رافقت وتلت ذلك. بل إن البعض يرى في النمو المطرد لمنظمات المجتمع المدني نتيجة لهذه التحولات وليس سببا لها، وأن الأخيرة، رغم نموها المتزامن مع تراجع دور الأحزاب، لم تتمكن من لعب دور فاعلي التغيير المجتمعي في مشروع التحرر الوطني، وتعزيز الانخراط السياسي والمدني، أو حتى الحفاظ على وتيرته. إن الانطلاق من تعريف ضيق لوحدة التحليل بوصف المنظمات المدنية هي فاعل التغير المجتمعي الرئيس، أشبه بوضع نظارات حاجبة للرؤية أمام مشروع البحث. كما أن هناك دور ملحوظ وشديد التأثير للحركات ذات الطابع الديني والإثني والتي ازدهرت بالتزامن من ازدهار مؤسسات المجتمع المدني، وربما بعد الأفول النسبي لدور الأخيرة.

ثمة قضيتان إضافيتان لضمان إعلاء إنتاج المعرفة على جمالية التخصص أو الصناعة البحثية: أولاً، إعطاء الأولوية للفهم على المنهج[6]، الذي يُفهم هنا على أنه "مقاربات مختلفة لشرح الظواهر قيد الدراسة، لفهمها، ولصياغة ما يُميّزها أو يُفرّقها، وما هو منتظم ومركّب فيها"[7]، وهي مشتقة من نظرية علمية تُعرّف بأنها "ترتيب منسق من مقولات أو افتراضات منطقية مترابطة حول ظواهر اجتماعية تُظهر نمطاً متكرراً،

[6] Bishara, “On the Precedence of Understanding Over Method.”

[7] Bishara. P. 91.

وعلاقة مستمرة بين المتغيرات، ومن ثم تُبيّن نوعاً من الانتظام والنظام المستقر وسط حالة من الاضطراب". ونعتقد أن هذا الربط لدراسة الواقع بمنطلقات نظرية، والتحرر من القيود الحقلوية التي تفرض قيوداً "تعسفية" على ماهية وكيفية المعرفة المتاحة، هو ما يمكننا من فهم التغيير المجتمعي وفواعله بهدف إعادة إنتاج آليات تغيير مجتمعي صالحة للمرحلة التاريخية الراهنة.

ثانياً، تجنب ما يُعرف بـ"قومية المنهج" (methodological nationalism)، المنتشرة في الفكر الحداثي وتداعياته، وبشكل خاص في العلوم الاجتماعية. تُفرض قومية المنهج عملياً باعتبار "الجماعة القومية هي الوحدة الطرفية والحد الفاصل في تعريف المشكلات والظواهر الاجتماعية"[8]. وتتخذ قومية المنهج ثلاثة أشكال: الأول والثاني يتعلقان بالعلاقة بين الحداثة والقومية؛ أما الثالث وهو ما يهمنا هنا، فهو "**منح مخيال العلوم الاجتماعية طابعاً إقليمياً**، واختزال البؤرة التحليلية إلى حدود الدولة القومية"[9].

نشأ نقد قومية المنهج ضمن دراسات الهجرة، من أجل تمكين الباحثين من دراسة العمليات الاجتماعية المرتبطة بالانتقال من مكان إلى آخر، ثم تَطوّر ليُوظَّف في بحوث العلوم الاجتماعية التي تأخذ بعين الاعتبار العولمة والظواهر العابرة للحدود. ويُصار إلى تجاوز القيود التحليلية لقومية المنهج عبر تحليل علائقي متعدد النطاقات (relational multi-scalar analysis)[10i].

وكان فرانز فانون قد قدم جدلاً أوسع، يعالج عدداً من قضايا المنهج ويحصّن من الوقوع في قومية المنهج. فقد نظر فانون إلى مفهوم السيادة، التي يسعى النضال ضد الاستعمار إلى تحقيقها، بانفصال عن مفهوم الدولة. فضمن تحليله الجدلي، أشار إلى أن المقاومة تصبو إلى استعادة السيادة من خلال التنظيم الواعي، الذي يتطوّر تدريجياً مع تطوّر مسار النضال[11].[ii] فمفهوم السيادة لدى فانون يشكّل جزءً لا يتجزأ من الممارسة الثورية المناهضة للاستعمار، ولكن هذه السيادة ليست هي نفسها تلك التي تجسّدها الدولة، بل هي ما عبّر عنه فانون بالقول إن "الكرامة والسيادة متكافئتان تماماً، فشعبٌ حر يعيش بكرامة هو شعبٌ ذو سيادة"[12]. أي أن التنظيم الواعي، والفعل، والممارسة المرتكزة إلى النضال من أجل تقرير المصير، تشكّل خريطة الطريق الثورية نحو نزع الاستعمار والإنسانية الجذرية.

والخلاصة التي يجب أخذها من هنا تكمن في تبني مقاربة الممارسة (praxis)، التي توحد النظرية، والتطبيق العملي، والتنظيم الواعي، وهي ما ننطلق منه في بناء منهج لدراسة فاعلي التغيير المجتمعي.

## القوة البنيوية والمنظمات والكلّية

يتطلب تحليل وفهم التغيير المجتمعي أخذ النظام الاجتماعي-الاقتصادي والسياسي الراهن بعين الاعتبار لكونه يكوّن الإطار الذي تُنظَّم فيه الحياة اليومية وتتشكل فيه تفاصيلها. فقد طوّر الرأسمال الصناعي بنيةً للسيطرة على العمل، شملت عناصرها: السيطرة البسيطة، والسيطرة التقنية (عبر الآلات)، والسيطرة البيروقراطية (عبر القواعد والتسلسل الهرمي)[13]. وكانت الأتمتة التايلورية (Tailorism) والانضباط العمالي الفوردي (Fordism) هما النمطان المركزيان لضمان الهيمنة عبر المجتمع المدني[14]. غير أن التحوّل في تشكيلات الرأسمالية من الصناعية إلى المالية أفضى إلى أشكال جديدة من إنتاج الرضى (consent)[15].

---

[8] Martins, "Time and Theory in Sociology." P. 276

[9] Ibid p. 276. (التوكيد من الأصل)

[10] Çağlar and Glick Schiller, "Relational Multiscalar Analysis."

[11] Fanon, *Wretched of the Earth*. p. 198.

[12] Ibid. p. 189.

[13] Edwards, *Contested Terrain*.

[14] Gramsci, *Prison Notebooks*.

[15] Burawoy, *Manufacturing Consent*.

شهد النظام الرأسمالي تحوّلاً من الإنتاج الكثيف في المركز ووظائف العمل المستقرة إلى إنتاج متمركز في جنوب شرق آسيا، مع انتشار العمل غير المستقر عالمياً، وتفشي التعاقد من الباطن وبالقطعة (outsourcing) (ما يروّج له بصفته "عمالة مرنة")، وسيطرة رأس المال المالي. وأصبحت هذه الظواهر، بالتوازي مع التقدّم التكنولوجي، وكأنها انضغاط للزمان والمكان أدى إلى تعزيز وتيرة الإنتاج والتداول والاستهلاك المعولمين، وإلى تفتيت المجتمعات في الأثناء[16]. لقد فرضت النيوليبرالية على الناس إعادة تشكيل مقاومتهم للرأسمالية بسبب إعادة تنظيم بنية العمل، ودور الدولة، وبالتالي، أشكال النضال الجمعي. وقد أسفرت الهجمات على حقوق العمال، وانتشار العمل غير المستقر، عن تراجع في تنظيم النقابات، في مقابل صعود الحركات الاجتماعية الواسعة أو أشكال المقاومة المحلية وتلك القائمة على الشبكات[17]. على صعيد النظام العالمي، غيّرت النيوليبرالية نمط اشتغال الإمبريالية؛ فبدلاً من الغزو الإقليمي الكلاسيكي، وبالإضافة إلى تقنيات الكولونيالية الجديدة، تمادت الإمبريالية في ممارسة الإكراه الاقتصادي، واستخدام الارتهان بالديون، والعولمة الاحتكارية، ما أفسح المجال أمام صعود غير مسبوق لنمط "التراكم عبر السلب"[18]. ويمكن تلخيص الحجة المركزية هنا في القول إن النيوليبرالية لم تُلغِ الإمبريالية بل غيرت طريقة عملها باتجاه التراكم من خلال السلب، عبر تجريد الدول والمجتمعات من مواردها، ونقل أدوات ضبط العمل من المصنع إلى تشريع الدولة، والعولمة، وتعميم أوسع للعلاقات السلعية في مجتمعات أكثر تشرذماً تخوض نضالات محلية وجزئية.

خلص باحثو مدرسة فرانكفورت إلى أن وسائل الإنتاج فقدت حيادها كأدوات للتقدم البشري، وباتت أدوات للهيمنة وإعادة تشكيل المجتمع بطريقة تقوّض المشاركة الديمقراطية وكرامة الإنسان[19]. فعندما يتدخل النظام السياسي-الاقتصادي في الحيّز الاجتماعي من خلال السيطرة التقنية، والعقلانية الأداتية (الفعالية، والتحكم، والتقدّم التكنولوجي)، يتم استعمار "عالم الحياة" (lifeworld)، وتقويض الحاجات الإنسانية والديمقراطية. وتقوم وسائل الإنتاج بتشكيل تفكير الناس، وكيفية تفاعلهم، وتخضعهم لمنطق الربح[20].

ويشير حوار متخيّل بين ديفيد هارفي ويورغن هابرماس إلى أن المجتمعات تتفتّت، وتصبح النضالات مجزأة ومحلية متعلقة بمطالب أحادية، نتيجة لتوسع، وتعميم، ونشر، وانغراس انضباط العمل في عالم الحياة.

لكن، ماذا يعني القول إن انضباط العمل قد تم تعميمه وتكثيفه وانتشاره في الحياة اليومية؟ وكيف يتمدد هذا الانضباط داخلها؟ يرى ميلز أن الحرية والعقل مهددان في عصر ما بعد الحداثة بسبب توسّع "المنظمات العظمى والعقلانية"، المتمثلة في البيروقراطية والاختصاصات التقنية في كافة ميادين الحياة[21]. وقد أدى توسّع هذه المنظمات وتقسيم العمل إلى إخضاع مجالات الحياة، والعمل، والترفيه للسيطرة البيروقراطية، والتي يرى فيها وسيلة للهيمنة والمناورة، وحرمان الإنسان من قدرته على التفكير الحر والعمل الحر[22]. في هذا السياق، تصبح الاستهلاكوية، وليس الإنتاج فقط، مصدر اغتراب[23]. فالحياة التي لا يمكن تغييرها تجعل التكيّف استراتيجية البقاء، وتُصبح مصفوفة التنظيم العقلاني مصدراً للاغتراب[24]. ومع ذلك، فإن دور المنظمات في الاغتراب ليس تطوراً "ما بعد حداثياً".

---

[16] Harvey, *The Condition of Postmodernity*.

[17] Harvey, *A Brief History of Neoliberalism*.

[18] Harvey, *The New Imperialism*.

[19] Marcuse, *One-Dimensional Man*; Habermas, *The Theory of Communicative Action*.

[20] Habermas, *The Theory of Communicative Action*.

[21] Mills, *The Sociological Imagination*. P. 168.

[22] Ibid.

[23] Ibid. p. 170.

[24] Ibid.

لقد ساهمت التكنولوجيا والحرب في توسع انضباط العمل، لا سيما في ظل الترابط العضوي بينهما في النظام الرأسمالي. رأى كارل مانهايم أن التكنولوجيا التي تطوّرت في الحربين العالميتين استخدمت لتركيز السلطة وتسهيل حكم الأقلية، فبينما كان الجندي قادراً على تهديد بضعة أفراد، فإن القنبلة تهدد الآلاف. ينطبق ذلك أيضاً على الحكومة والإدارة، حيث وفّرت الهواتف والراديو وسكك الحديد والسيارات أدوات لحكم مركزي واسع. كما أتاحت العلوم السلوكية للدول إمّا تحسين كفاءة الإنسان أو التلاعب بعواطف الجماهير[25]، من خلال ما سمّاه مانهايم "التقنيات الاجتماعية"[26] - الوسائل التي تهدف إلى التأثير على السلوك البشري وتُستخدم كوسائل فعّالة للسيطرة الاجتماعية. تُفعَّل التقنيات الاجتماعية من خلال الكفاءة المتزايدة. أما الأثر الذي تتركه هذه المنظمات البيروقراطية الضخمة على الفرد، فهو أن الناس يستبطنون منطق التنظيم الداخلي، ويُخضعون أنفسهم، ونزواتهم، وتطلعاتهم، وطرائق تفكيرهم للوائح هذه المنظمات، مما يُنتج ما يُعرف بـ"التنظيم الذاتي العقلاني" (self-rationalization)[iii]، حيث يبدأ الأفراد بتنظيم أنفسهم بما يتماشى مع منطق المؤسسات البيروقراطية.

ومع توسع نظام العمل تتم تعمية (mystification) الطابع الاجتماعي للعمل. وقد لاحظ ليفيفر أن الحياة اليومية باتت مفرطة في التنظيم، والسلعية، والتشظي نتيجة للقوى الأيديولوجية والاقتصادية، ويُعبّر عن الحياة اليومية باعتبارها موقعاً للاغتراب[27]. تصوغ البيروقراطية والنزعة الاستهلاكية والتكنولوجيا الحياة اليومية بطرق جديدة، بحيث تصبح الحياة اليومية مجزأة ومنظمة وسلعية بشكل متزايد، مما يجعل الاغتراب أكثر انتشاراً[28]. لكنها أيضاً نتاج عام يُنتَج من خلال "الثالوث: الشكل-الوظيفة-البنية"[29]. في حين يلعب الإيقاع المتكرر للحياة اليومية دوراً في إخفاء الدورات وسحقها.

هكذا يُصبح ضرورياً دراسة كيفية تغلغل آليات ضبط العمل في الحياة اليومية وتشكّل أنماط التفكير والسلوك والتفاعل، لفهم التغيير المجتمعي وفواعله. لقد أعادت الرأسمالية المالية النيوليبرالية هيكلة العمل وأضعفت دور الدولة المتعلق بتوفير مقومات العيش، وأنتجت مجتمعات مجزّأة واختزلت النضال إلى المستويات المحلية. وقد نبّه مفكرون من فروع معرفية شتى إلى كيفية عمل البيروقراطية والتكنولوجيا والاستهلاكوية على استعمار الحياة اليومية وتقويض الحرية والمشاركة والكرامة. رغم اختلاف مقارباتهم، إلا أنهم بيّنوا كيفية اشتغال الشمولية الرأسمالية عبر نطاقات مختلفة. فقد أظهر كلٌ منهم كيف أن كُلّية الرأسمالية تعمل ضمن مجال خبرته. ومن هنا نلحظ أيضاً تبايناً طفيفاً في التعريفات المُستخدمة. إلا أن ما يكشف عن القوة البنيوية لهذه الشمولية[30] هو النظر إليها من زاوية تحليلية متعدّدة النطاقات[iv].

الخطة البحثية المقترحة هنا تأخذ المقاربات والتصورات المذكورة أعلاه بعين الاعتبار، ولكن من خلال عدسة نقدية. وينطبق ذلك مثلاً على ما يخص مراحل وتشكيلات الرأسمالية. فرؤية هارفي القائلة بأن النيوليبرالية أدخلت شكلاً جديداً من "التراكم البدائي" المتمثل في "السلب"، موضع مراجعة. إذ أن هذا النمط كان حاضراً دائماً في تاريخ الرأسمالية من خلال الاستعمار والاستخراج[31]. بل إن الحربين العالميتين يمكن فهمهما، بالإضافة إلى حروب أخرى كثيرة، بصفتها عمليات سلب، فمن المعروف، مثلاً، أنه تم نقل ثروات هائلة من أوروبا (ومن مناطق أخرى) إلى الولايات المتحدة إبان الحرب. وشهدت بداية القرن الحادي والعشرين (منذ إطلاق ما سمي بـ"الحرب على الإرهاب")، وما تزال، عودة القوى الإمبريالية إلى استخدام صندوق العدة الخاص بالاستعمار الكولونيالي المباشر (الكلاسيكي)، فقد عاد الغزو العسكري الكولونيالي المباشر إلى واجهة العلاقات الجيوسياسية الدولية.

---

[25] Mannheim, *Diagnosis of Our Time*. p. 1-11.

[26] Mannheim. P. 1.

[27] Lefebvre, *Critique of Everyday Life, Vol. 1*.

[28] Lefebvre, *Critique of Everyday Life*.

[29] Lefebvre and Levich, "The Everyday and Everydayness." p. 8-9.

[30] Wolf, "Distinguished Lecture"; Wolf, *Envisioning Power*.

[31] Federici, *Re-Enchanting the World*.

أما فكرة ميلز عن تحول الاستهلاك إلى مصدرٍ للاغتراب، فليست دقيقة؛ فصنمية السلع وارتباطها بالاستهلاك ظاهرة ملازمة للرأسمالية، وكان ماركس قد أشار إلى ذلك.[32] فالإنتاج يحدّد طبيعة الاستهلاك، وبالتالي فإن الاستهلاك يشارك بدوره في إنتاج وإعادة إنتاج الاغتراب. هذا بالطبع لا ينفي تفاقم الاغتراب مع التعاظم الكبير للاستهلاك في عصر الاستهلاكوية وتحوله إلى محور رئيسي في الحياة اليومية ذات كينونة مستقلة نسبيا عن عملية الإنتاج في ظل الصعود منقطع النظير لرأس المال المالي في الحقبة النيوليبرالية.

أما طرح منظري مدرسة فرانكفورت حول "فقدان" حيادية وسائل الإنتاج، فمشكوك فيه في أحسن الأحوال إذا ما أخذناه من منظور الطبقة العاملة. فماركس[33]، ومئات الكتابات عن حالة الطبقة العاملة خلال الثورة الصناعية تشهد على التأثير غير المحايد وغير الطبيعي لوسائل الإنتاج في صقل المجتمع البشري والطبيعة والأجساد البشرية نفسها، ناهيك عن الثقافة والرغبات والأذواق وفي كل مجال آخر من مجالات الوجود البشري. كان هذا التأثير وعدم الحيادية دائماً من خصائص وسائل الإنتاج، التي تطورت من خلال البرجوازية ومن أجلها لكي يتم الاستفادة منها كوسيلة لإخضاع الطبقة العاملة ومعذبي الأرض ونهبهم.

يُظهر الباحثون، الذين تمت الإشارة إليهم أعلاه، تحولات فعلية في أشكال وأنواع وأساليب السيطرة المتغلغلة في الرأسمالية. ومع ذلك، فإننا نجادل بأن هذه التحولات ليست تشكلاً جديداً للرأسمالية، بل مجرد تعبيرات جديدة عن الشمولية. ففي نطاق تحليلهم المقياسي-الفردي الذي تحل فيه الأجزاء محل الكل، وتترسخ المفاهيم المعاد تشكيلها. وبهذا المعنى، فإننا نضع هذا المشروع البحثي في إطار رؤية الرأسمالية كنظام شمولي يعمل على السيطرة على العالم وإخضاع البشرية، حيث يتربع رأس المال المالي على عرش المرحلة الحالية للرأسمالية. هذه المرحلة هي أعلى مراحل الرأسمالية وتتيح إعادة التوزيع المستمر للممتلكات الاستعمارية والاستعمارية الجديدة بين القوى[34]، في حين أن النيوليبرالية تشكل الطبقة الأيديولوجية - المشروع السياسي - والتعبير الراهن عن الرأسمالية.

يمكننا إذن تلخيص تطور الرأسمالية لغرض هذا المشروع بالقول إنها تتوسّع وتتكثّف في حياة البشر. فحاجتها إلى النمو المستمر، وهي نقطة ضعفها الأساسية، تدفعها نحو التوسع التقني، والحروب الإمبريالية، والتغلغل في الحياة اليومية. هذه المسارات لا تعمل بمعزل عن بعضها، بل بتكامل عميق. لذا نُؤطّر دراستنا داخل شمولية الرأسمالية وتكثّفها داخل تفاصيل الحياة اليومية.

ولتحليل هذا التأثير، نستخدم منهجية تضع الحياة اليومية في موقع مركزي تتجلّى فيه السلطة البنيوية ويُعاد إنتاجها. ويتم ذلك عبر تتبّع كيفية انتشار انضباط العمل إلى مجالات الحياة الأخرى - كالاستهلاك، والترفيه، والتعبير العاطفي - من خلال العقلانية المبقرطة، والتسهيلات التقنية، وإعادة الهيكلة الاقتصادية. ويتطلب ذلك مقاربة متعددة المناحي ومتداخلة التخصصات، تستلهم من علم الاجتماع، وعلم الإنسان، والجغرافيا البشرية، والاقتصاد السياسي، والفلسفة، وغيرها. نسعى إلى فهم كيف تُترجم التحولات الكُبرى في الرأسمالية إلى ممارسات وأمزجة فردية، مثل التنظيم الذاتي، وسلوك المستهلك، والمقاومة المشرذمة. وندرس كيف يستبطن الأفراد المنطق المؤسساتي داخلياً (العقلنة الذاتية)، وكيف يتم تطبيع أنواع المنطق هذه من خلال التقنيات الاجتماعية: المعايير الإدارية، والعلوم السلوكية، وتكنولوجيا الاتصال، والتي تُوجّه السلوك بطرق غير مباشرة.

يتطلّب تحليل المجتمع اليوم فحص أنظمة السيطرة كما تعمل عبر التقنيات الاجتماعية والمؤسسات والتكنولوجيا، والتي تدفع الأفراد إلى إعادة إنتاج الانضباط والاغتراب بشكل ذاتي (من تلقاء أنفسهم).

---

[32] Marx, *Grundrisse: Foundations of the Critique of Political Economy (Rough Draft)*.

[33] Marx, *Capital: Volume 1: A Critique of Political Economy*; Marx and Engels, *The Economic and Philosophic Manuscripts of 1844 and the Communist Manifesto*.

[34] Lenin, *Imperialism, the Highest Stage of Capitalism*; Nkrumah, *Neo-Colonialism*.

فتُصبح الحياة اليومية موقعاً محورياً يمكن من خلاله رصد كيفية تجلّي الأيديولوجيا والسلطة الاقتصادية والسيطرة داخل إيقاعات الحياة اليومية.

كما تدعونا هذه المنهجية إلى تأريخ تطوّر آليات ضبط العمل، والسيطرة التنظيمية داخل المجتمع الفلسطيني، وملاحظة كيف تكمن هذه القوى في البنى التحتية، والأنظمة البيروقراطية، والإعلام، والخدمات الاجتماعية. وعليه، نتعامل مع الاغتراب كمنتج وعدسة تحليلية في آنٍ معاً: وسيلة لكشف كيف تخفي الرأسمالية سيطرتها خلف واجهة الحياة اليومية العادية.

منهجياً، يعني هذا استخدام أدوات متداخلة الحقول تشمل الاقتصاد السياسي، والتحليل الإثنوغرافي، وتحليل الخطاب، وتحليل المنظمات، قادرة على الكشف عن العمليات الأيديولوجية والمادية التي تُسلّع، وتُرشد، وتضبط الحياة اليومية. في نهاية المطاف، تُدرَس السلطة البنيوية ليس فقط من خلال مؤسساتها الظاهرة، بل أيضاً عبر تأثيراتها اليومية، المتناثرة، وغير المرئية أحياناً، على الفكر والسلوك والتنظيم. ومن خلال هذا المقاربة المنهجية، نتمكّن من تحليل أثر الشمولية على الأفراد والجماعات والمواقع وآليات عملها على هذه الأصعدة، بما في ذلك فهم مكانة الاغتراب، ودور المنظمات في إنتاجه أو إلغائه.

## السلاح التنظيمي

يتفق معظم الباحثين الذين ناقشناهم أعلاه – بشكل أو بآخر – على أن التغيرات في المجتمع الحديث مرتبطة بتغلغل المنظمات في الحياة اليومية للأفراد. وفي هذا السياق فإننا بالفعل نعيش في "مجتمع المنظمات"[35] التي "تشكّل حياتنا من الولادة إلى الوفاة"[36]. وتُعرّف المنظمات بأنها "مجموعة ذات عضوية محددة تشارك في أفعال جماعية منسقة لتحقيق هدف مشترك"[37]. ويُعدّ التغيير المجتمعي عملية تتطلب أجساماً منظمة تعمل من أجل إحداث هذا التغيير.

بات واضحاً أن المنظمات هي الحوامل التي تستخدمها الرأسمالية لغزو المجتمعات وإخضاعها، لكنها في الوقت ذاته يمكن أن تُستخدم لمواجهة هذا الإخضاع. في هذا القسم، سنقوم بتحليل التنظيمات القاعدية، والحزب المقاتل، والحركات الجماهيرية، من خلال دراسة حالة معيارية وهي الثورة البلشفية، للوقوف على فواعل التغيير المجتمعي. فالثورة البلشفية تُعدّ حالة موثقة جيداً تُظهر كيف تؤثر الأشكال والوظائف والبُنى التنظيمية المختلفة في إحداث التغيير. كانت ثورة أكتوبر 1917 بمثابة استيلاء على السلطة من قِبل حزب البلاشفة[38]، الذي أطاح بالحكومة المؤقتة وأنشأ دولة اشتراكية تستند إلى سلطة السوفييتات[39]. وقد جاءت الثورة نتيجة لسخط شعبي واسع من الحرب، وغياب المساواة، وفشل الحُكم. وكانت مدفوعة بقوى عمّالية وفلاحية وعسكرية نظّمت نفسها في لجان وسوفييتات ضمن حركة جماهيرية واسعة ضمّت البلاشفة، والمناشفة، والثوريين الاشتراكيين، والفوضويين، والمستقلين الراديكاليين. وعند دراسة هذه الحالة، نجد أربعة أشكال تنظيمية أساسية: التنظيمات القاعدية؛ والسوفييتات؛ والأحزاب السياسية؛ والحركة الجماهيرية الثورية.

### 1. التنظيمات القاعدية

كانت اللجان والنقابات تعمل قبل سقوط القيصر على الرغم من كونها محظورة في كثير من الأحيان. ومع تأسيس الحكومة المؤقتة انتشرت اللجان والنقابات بسرعة. وشملت هذه اللجان لجان المصانع، ولجان الفلاحين، ولجان الأحياء أو لجان المستأجرين، ولجان الجنود، والنقابات العمالية، والسوفييتات، بالإضافة

---

[35] Perrow, "A Society of Organizations."

[36] Tolbert and Hall, *Organizations*. p. 16.

[37] Giddens, *Sociology*. p. 367.

[38] Trotsky, *History of the Russian Revolution*.

[39] Rabinowitch, "The Bolsheviks Come to Power in Petrograd."

إلى الزيادة السريعة للجمعيات الاستهلاكية والتعاونية التي كانت موجودة من قبل ولكنها ظلت محدودة بسبب نفوذ الدولة.

لعبت هذه الهيئات المختلفة دوراً متزايد الأهمية في إدارة حياة الناس في ظل تفكك الدولة الروسية. وكان شكل - وظيفة - هيكلية هذه الهيئات على النحو التالي: لجان المصانع التي ركزت على إدارة مكان العمل، والدفاع عن الأجور، والإدارة الذاتية للإنتاج على نحو متزايد، وكان المندوبون ينتخبون من أرضية المصانع[40]. كانت لجان الفلاحين غير رسمية بطبيعتها، ولكنها استمدت سلطتها من المجالس الريفية، وكان الدور الذي لعبته هذه اللجان محورياً في الثورة الريفية حيث كان الاستيلاء على الأراضي من المالكين والكنيسة أحد وظائفها الرئيسية، بالإضافة إلى إعادة توزيع الأراضي، والدفاع عن القرى، وفي بعض الحالات العدالة المحلية[41]. عملت لجان الأحياء في المدن، فنظمت توزيع المواد الغذائية، وأدارت النزاعات المتعلقة بالإيجار، ونسقت أعمال الصرف الصحي، وفي بعض الحالات تولت أعمال الحراسة ونظمت دعم اللاجئين، وأصبحت مواقع للتحريض. وكانت لجان الأحياء قائمة بشكل أساسي على أساس توافق الآراء.

وكانت النقابات العمالية تعمل حسب القطاع الصناعي، وتعمل على مستوى المصانع من خلال خلايا تجتمع بانتظام، وتضم أعضاء من القاعدة الشعبية ولجان تنفيذية منتخبة. كما كان للنقابات العمالية أيضاً اتحادات على مستوى المدينة وعلى مستوى المقاطعة. وقد تركز عملها على مطالب الأجور = وظروف العمل ويوم العمل المكون من 8 ساعات قبل ظهور الحكومة المؤقتة[42]. وفي عام 1917، وسعوا دورهم ليشمل تنظيم الإضرابات والتفاوض مع أصحاب العمل والتأثير على السياسة الصناعية.

أما الجمعيات التعاونية، فقد شملت ثلاثة أنواع: جمعيات المنتجين الزراعيين، جمعيات المستهلكين، والشراكات المجتمعية الإنتاجية (artels)[v]. وعملت تعاونيات الزراعيين في المناطق الريفية؛ والجمعيات الاستهلاكية في المناطق الحضرية؛ والتعاونيات والشراكات في كلتا المنطقتين. وكان لكل من الشراكات وتعاونيات المنتجين هيكل تنظيمي أفقي، ولكن يبدو أن الشراكات كانت تعتمد على اتخاذ القرارات بتوافق الآراء والقيادة بالتناوب بينما كانت التعاونيات الزراعية أكثر هرمية. كانت التعاونيات الزراعية قائمة على أساس محلي، وكان لديها لجان إدارية منتخبة وكانت عملية صنع القرار تتم من خلال مجالس[43]. وعملت التعاونيات الزراعية على زيادة الإنتاجية وتحسين الوصول إلى الأسواق وتقليل الاعتماد على الوسطاء من خلال اللجوء إلى توريد المدخلات وتوزيع المخرجات بشكل مباشر[44]. وفي الوقت نفسه، كانت الجمعيات الاستهلاكية منظمات قائمة على العضوية ولها مجالس إدارة منتخبة وتدير مخازن أو مراكز توزيع. وكانت وظيفة الجمعيات الاستهلاكية هي تثبيت الأسعار، وضمان الوصول إلى الغذاء، وحماية العمال والفلاحين من الحرب والتربح التجاري والندرة. كان للجمعيات الاستهلاكية دوراً حاسماً في عملية التبادل بين المناطق الحضرية والريفية، وازدادت أهميتها مع ظهور "شيوعية الحرب" حيث باتت الحاجة ماسة إلى شبكات توزيع المواد الغذائية[45]. عملت الشراكات حيث انهارت أسواق العمل المأجور. وكانت الشراكة هي الشكل المركزي للتعاون الحرفي بين صغار المنتجين في المناطق الحضرية. ففي المناطق الحضرية أنشأت ورشات النسيج ومجموعات صانعي الأحذية ومجموعات النجارة وعمال المعادن في المناطق الحضرية. أما في الريف، فقد تم إنشاؤها لقطع الأشجار والتعدين وصيد الأسماك والدرس والحصاد.

---

[40] Smith, *Red Petrograd*.

[41] Ferro, *October 1917. p. 155-128*; Siegelbaum, *Soviet State and Society between Revolutions, 1918–1929*. p. 85-95.

[42] Suny, *The Structure of Soviet History*.

[43] Chayanov, *The Theory of Peasant Economy*.

[44] Chayanov; Pries, "The Cooperative Movement in Russia:A Microfiche Collection of Works That Illustrate This Movement That Was Very Successful in Russia in the Late 19th and Early 20th Century."

[45] Kayden and Antsiferov, *The Cooperative Movement in Russia During the War*.

## 2. السوفييتات

نشأت السوفييتات بشكل عفوي في سياق الاحتجاجات مثل الإضرابات والانتفاضات. كانت السوفييتات هي الطريقة التي نظم بها الناس حياتهم اليومية خارج الدولة في فترة الثورة. طوّرت السوفييتات مجموعات عمل لضمان الاحتياجات اليومية لأعضائها ومجتمعاتها المحلية، واستلزم ذلك تشكيل مجموعات عمل لضمان الإمدادات الغذائية والإسكان وحل النزاعات في أماكن العمل والقيام بالتحريض والدعاية وتنسيق الإضرابات. انتخب السوفييت لجاناً تنفيذية للتنسيق مع السوفييتات والهيئات الأخرى. كانت الانتخابات مباشرة وليست تمثيلية، وكان من الممكن استدعاء المسؤولين المفوضين بسرعة إذا لزم الأمر. كان المندوبون مفوضين - بمعنى أنهم كانوا ينفذون إرادة الناخبين وليس إرادتهم أو إرادة أي حزب. في بعض الحالات - وأشهرها سوفييت بتروغراد - شكلت هياكل اتحادية مكونة من ممثلين مفوضين من سوفييتات الأحياء والمصانع[46]. كانت السوفييتات عبارة عن هياكل مرنة تتكيف مع احتياجات أعضائها والظروف. بمعنى ما، كانت السوفييتات هي الشكل المحلي للقوة الثورية[47]. كانت السوفييتات مؤسسات سلطة مزدوجة تعمل بالتوازي مع الحكومة المؤقتة في ذلك الوقت[48].

ظهرت هذه الشبكة المعقدة من المنظمات الشعبية لملء فراغ الدولة المنحلة. فقد اضطلعت لجان المصانع، ولجان الفلاحين، ولجان الأحياء، والنقابات العمالية، والتعاونيات المختلفة، والسوفييتات بأدوار حيوية في إدارة الحياة الاقتصادية، والنظام الاجتماعي، والتنظيم السياسي. وكان لكل منها هيكلها الخاص من حيث الشكل والوظيفة مثل الإدارة الذاتية لأماكن العمل، وإعادة توزيع الأراضي، وتوفير الغذاء، والتفاوض الصناعي. وكثيراً ما تداخلت هذه الهيئات في عضويتها ونطاق عملها، وعملت في المناطق الحضرية والريفية، وغالباً ما تولت وظيفة الحوكمة المحلية والتنسيق الاقتصادي. ومع ذلك، لم تكن علاقاتها متناغمة دائماً - فقد أدت التوترات حول السلطة والاستراتيجية والولاء السياسي إلى صدامات وتنافس متكرر، لا سيما في السياقات التي تتداخل فيها الوظائف، أو تتباعد أيديولوجياً. وعلى الرغم من هذه الاحتكاكات، إلا أن قدرة الحزب البلشفي على إضفاء الطابع المركزي على هذه الهيئات وتنسيقها وإخضاعها في نهاية المطاف تحت قيادته الثورية هي التي مكّنت من تسخير قوتها الجماعية لنجاح ثورة أكتوبر ومشروع بناء الدولة السوفيتية في بداياتها.

## 3. الحركات الجماهيرية

تألفت الحركة الجماهيرية الثورية الأوسع نطاقاً من البلاشفة، والمناشفة، والثوريين الاشتراكيين، والفوضويين، والراديكاليين المستقلين. كانت منطقة العمليات الرئيسية هي المدن، وإن لم يكن ذلك على سبيل الحصر. كان الحدثان الرئيسيان للحركة الجماهيرية هما ثورتا فبراير وأكتوبر، حيث أطاحت الحركة الجماهيرية بالحكومة القيصرية، ومن ثم بالحكومة المؤقتة، ما أدى إلى صعود البلاشفة إلى السلطة. افتقرت هذه الحركة إلى أي هيكل متماسك أو تنسيق مركزي، وعملت من خلال التحريض، والنضال المحلي بتعاضد تيارات مختلفة من القوى الاجتماعية[49]. على المستوى الجزئي، كانت الأنشطة تتم على يد النقابات العمالية ولجان وتجمعات المصانع والفلاحين والجنود، وتتقاطع في السوفييتات.

## 4. الحزب المقاتل

الحزب المقاتل - كما نظّر إليه لينين - هو منظمة ثورية محترفة[50]. آمن لينين أنه بدون حزب لتوجيه الثورة ستكون النتائج ذات طابع مطلبي وإصلاحي. كان الحزب منظماً في إطار ديمقراطية مركزية، وكانت هناك نقاشات داخلية حرة مع الحفاظ على العمل الخارجي المنضبط والموحد. كانت وظيفة الحزب المقاتل هي

---

[46] Smith, *Red Petrograd*.

[47] Rabinowitch, "The Bolsheviks Come to Power in Petrograd."

[48] Lenin, "The Dual Power."

[49] Trotsky, *History of the Russian Revolution*.

[50] Lenin, *What Is to Be Done?*

توجيه الثورة من خلال الارتقاء بوعي الطبقة العاملة وتحويل الفوضى العفوية إلى عمل ثوري. كان الشكل عبارة عن منظمة طليعية، أعضاء على درجة عالية من الكفاءة والتدريب والمهنية يعملون بتنسيق وتكريس لضمان استيلاء الطبقة العاملة على القوة السياسية. وعلى المستوى الجزئي، شكّل البلاشفة هياكل خلايا سرية في لجان المصانع، وبين الفلاحين، وفي السوفييتات، والنقابات التي كانت تقوم بالتحريض ونشر الدعاية مع بناء الكوادر اللازمة لتوسيع نطاق المعارضة وتجاوزها. ويختلف الحزب المقاتل عن الأحزاب السياسية الليبرالية في أن أعضاء الأحزاب المقاتلة هم كوادر قادرة على الانتشار، تعمل من أجل الأهداف الاستراتيجية للحزب، أي جعل الحزب المقاتل "سلاحاً تنظيمياً"[51].

## التقنية المضادة ودور التشكّلات النطاقية (Scalar Formations)

بعد إلقاء نظرة على شكل-وظيفة-هيكلية الفاعلين المجتمعيين العاملين في الثورة الروسية، نرى كيف عملت المنظمات المختلفة ولأية أهداف. في حين أن التقسيم أعلاه يسطّح قليلاً ثراء وتنوع الأشكال التي تم نقاشها أعلاه، تجدر الإشارة إلى أنها عملت بشكل متعاضد، ولكن هلامي. ويعني ذلك إمكانية تعاون المنظمات مع بعضها البعض أحياناً، وتنافسها، وتصادمها في أحيان أخرى. ويُظهر السجل التاريخي أن هذا هو بالضبط ما حدث وأن الظروف المحلية شكّلت العوامل الرئيسية المحددة لطبيعة التفاعل بين المنظمات المختلفة. علاوة على ذلك، يمكن لهذه المنظمات أن تندمج، كما فعل الحزب مع السوفييت، ونشأ وضع لعب فيه الحزب دور العقل، والسوفييت دور الجسد، وكانت الحركة الجماهيرية هي النتيجة.

يبرز بين معالم الثورة البلشفية أعلاه عنصران يستحقان المزيد من التمحيص بسبب أهميتهما لنقاشنا المتعلق بتنظيم عمل فاعلي التغيير المجتمعي، وهما: كيفية قيام الحزب المقاتل بمجابهة "التقنيات الاجتماعية" في الحياة اليومية – وهو ما نطلق عليه "التقنية المضادة" (counter-technique)؛ وأهمية ومفعول التشكّلات النطاقية (scalar formations) في التغيير المجتمعي. ذلك لأن فهم فاعلي التغيير المجتمعي ممكن من خلال تحليل الأشكال التنظيمية بوصفها أدوات تغيير أو "أسلحة تنظيمية"، سواء في وجه السيطرة البنيوية أو في سبيل بناء قوى اجتماعية تواجه السيطرة البنيوية.

### 1. التقنية المضادة (Counter-Technique)

كما أوضح مانهايم، تتمحور التقنية الاجتماعية حول توسّع المنظمات باستخدام الإدارة العلمية للسيطرة على الناس في مجتمع ما. ويتم ذلك بأدوات الدولة التي تمارس بواسطتها قوتها: البنى التحتية، والمواصلات، والاتصالات، والإعلام، والخدمات الاجتماعية والتعليمية. بالمقابل، يتّبع الحزب المقاتل أساليب سرية لتدريب كوادره، بهدف التهرّب من مراقبة الدولة. ويستخدم التحريض والبروبوغندا عبر الصحافة الحزبية[52]، حيث تخاطب بعض المواد القواعد الحزبية، فيما تخاطب أخرى الجماهير الواسعة، وفي كلا الحالتين تُوجّه كوادر الحزب وتفنّد سرديات الإعلام الطبقي[53].

تُعزل خلايا الحزب ضمن دوائر مغلقة ذات روابط اجتماعية متينة، بهدف تقليل التأثيرات الخارجية[54]. وتُواجه التقنية المضادة ظاهرة "العقلنة الذاتية" للأفراد من خلال التدريب والتعليم السياسي، الذي يُعيد تشكيل مواقف وأنماط سلوك الأعضاء[55]. ويقوم الحزب المقاتل بتجنيد وتدريب أعضاء يجسدون البرنامج السياسي ويصبحون "محترفين ثوريين"[56].

---

[51] Selznick, *The Organizational Weapon*.

[52] Lenin, “Where to Begin?”

[53] Selznick, *The Organizational Weapon*.

[54] Selznick; Lih, *Lenin Rediscovered*.

[55] Selznick, *The Organizational Weapon*.

[56] Lenin, *What Is to Be Done?*

قد يحاجج البعض أن التقنية المضادة ليست إلا شكلاً آخر من التقنية الاجتماعية، لكنها تختلف عنها لثلاثة أسباب رئيسية: أولاً، أدوات السيطرة الاجتماعية المتاحة للدولة تختلف جذرياً عن تلك المتوفرة لفاعل سياسي محاصر ومجرَّم وسرّي؛ ثانياً، الهدف من التقنية الاجتماعية هو خلق أفراد منضبطين ذاتياً، بينما تهدف التقنية المضادة إلى إنتاج فاعلين قادرين على تجاوز نطاقات الفعل التي تتيحها السلطة، ثالثاً، على المستوى الفوق-نظري، تسعى التقنية الاجتماعية إلى إدامة الاغتراب، في حين تسعى التقنية المضادة إلى نزع شروط الاغتراب - ولو بشكل مؤقت.

يرى لوكاتش أن عملية اكتساب العلاقات لوجود "موضوعي" مستقل (عن أطراف العلاقة)، أو ما يعرف بـ"التشيؤ" أو "التموضع" (objectification)، والذي يؤدي إلى تحويل العلاقات إلى "أصنام" تحل محل العلاقات الاجتماعية بحيث تبدو العلاقات مستقلة عن أطرافها. ولا يقتصر التموضع على التبادل الاقتصادي، بل ينتشر في الكل الاجتماعي - بما في ذلك في الأحزاب الثورية. يحدث "التحول" من خلال الوعي الزائف الذي يتسم به "العقل" البرجوازي ويعرضه على أنه "عقلنة"، ويؤدي استبطانه إلى تقييم الثنائيات معزولة عن شموليتها. إن تركيز لوكاتش على وحدة النظرية والممارسة قاده إلى استنتاج – ونقد - أن الجّسر بين الاثنين هو التنظيم، وأن إعادة تجسيد الرأسمالية داخل الأحزاب الثورية سببه فقر النظرية التنظيمية. ولما كانت المنظمات تسهم في علمية التصنيم، وتجسدها، فإن دور الحزب يكمن، حسب لوكاتش، في التجسير بين النظرية والممارسة، الأمر الذي يُتيح نزع الصنمية (fetishism)، وتحرير الأعضاء من الاغتراب. ولذلك، فإن من الضروري، عند دراسة المنظمات ودورها في التغيير المجتمعي، النظر في التقنيات التي تستخدمها المنظمات الاجتماعية. وهذا يستلزم النظر في دورها في علاقات القوة داخل المجتمع، والأهداف المعلنة للمنظمات، ودورها في إنتاج أو تفكيك الاغتراب والتشيؤ.

## 2. التشكيلات النطاقية

تعمل المنظمات على جميع مستويات النشاط الإنساني، من المحلي إلى العالمي. فهناك الدولة الوطنية، والاتحاد الإفريقي أو الأوروبي، والأمم المتحدة، والشركات المتعددة الجنسيات، والحركات الاجتماعية مثل (La Via Campesina). وهناك تنظيمات محلية مثل الروابط، والجمعيات الخيرية النسائية الريفية.

تُظهر دراسة الثورة البلشفية أن المنظمات أثّرت في مسار الثورة في نطاقات متنوعة. أفضت المشاركة الروسية في الحرب العالمية الأولى، واستمرار انخراط روسيا في الحرب بعد ثورة فبراير، إلى انقسام مواقف الدول من الحكومة الوطنية. وتمكن الناس (أو اضطروا) في ظروف الحرب وضغوطاتها إلى تنظيم حياتهم الخاصة دون الدولة. ويشكل الدور الذي لعبته المنظمات الشعبية، ووظيفتها وشكلها نمطاً مثيراً للاهتمام للهياكل النطاقية، جديراً بالدراسة.

كانت وظيفة اللجنة - سواء كانت لجان المستأجرين أو المصانع أو الفلاحين - من جهة ضمان معيشة أعضائها ومن جهة أخرى محاربة الاستغلال. وكانت نطاقات فعلها تنحصر عادة في الأحياء المحلية أو القرى أو المصانع. ولكن من أجل العمل على نطاق أوسع، مثل النشاط على مستوى المدينة أو المقاطعة مثل الإضرابات القطاعية أو ضمان وصول مدخلات الإنتاج، كانت هناك حاجة إلى اتحادات النقابات وتنسيقات المقاطعات والتعاونيات الاستهلاكية. وبالمثل، كانت هناك حاجة إلى اتحادات الهيئات التعاونية لحماية المنتجين، وضمان توزيع المنتجات، وتمكين المفاوضات بشأن المواد الخام، إلخ... وباختصار، كانت المنظمات التي مكنت سبل العيش والدفاع عن الحقوق تتطلب هياكل اتحادية (تكاملية) تعمل على نطاق أوسع من أجل ضمان عملياتها المحلية. هكذا شكّلت الاتحادات أولى التشكيلات النطاقية التكاملية.

يوجد تشكيل نطاقي تكاملي ثاني، أكثر تعقيداً، يتعلق بدمج السوفييتات والحزب المقاتل. حيث عمل الحزب المقاتل من خلال خلاياه المختلفة الموجودة في السوفييتات على توجيه الحركة الجماهيرية، والتجنيد، والتعبئة اليومية للعمال. ومن خلال تغلغل الحزب البلشفي في السوفييتات تمكن من صياغة برنامج وطني وتنفيذه محلياً من خلال السوفييتات. وفي الوقت نفسه، أصبحت السوفييتات أكثر قدرة من خلال وجودها على مستوى القاعدة الشعبية على تشكيل مدخلات الحزب وعمله. خلق هذا الاندماج التكاملي قوة مزدوجة

تحدّت الحكومة المؤقتة، وأصبحت الوسيلة المستجدة لتنظيم الدولة السوفيتية فيما بعد[57]. وفي حين أن هذا هو التأريخ الرسمي، من المهم أن نلاحظ أن بعض الأشكال الأخرى من التنظيم التي اندمجت في هذه الهياكل أيضاً، وعلى وجه الخصوص الجمعيات الاستهلاكية وتعاونيات المنتجين التي لعبت دورا مركزيا، من خلال الهياكل الفيدرالية[58]، في ضمان حركة المنتجات بين المناطق الريفية والحضرية وتوزيع الحصص التموينية في فترة "شيوعية الحرب"[59].

## الاتجاهات المنهجية

يشكل الاغتراب مقياساً رئيسياً للعزوف عن الفعل الاجتماعي، فهو نتاج لمجموعة العوامل التي تعيق الفعل التغييري المجتمعي كونه ناتج عن سيطرة البيروقراطية، وضبط/انضباط العمل، وأثر التكنولوجيا على الحياة اليومية. لذلك يمكن فهمه على أنه شرط مادي وبنيوي يُعاد إنتاجه عبر الأشكال المتنوعة لتقنيات التنظيم، من شأنه كسر الروابط العضوية بين الفاعل المجتمعي والمجتمع، وشرذمة المجتمع، وتشتيت الاهتمام بالحيز العام. بناء عليه، فإن الاتجاهات المنهجية المقترحة للوقوف على شروط فاعلية التغيير المجتمعي تقوم على تحليل كيفية استبعاد الأفراد والجماعات عن الفعل الجماعي، وإحباط إرادتهم التغييرية؛ وآلية مساهمة بعض الأشكال التنظيمية في مواجهة هذا الاغتراب أو تفكيكه.

التحليل النطاقي التكاملي ضروري هنا، إذ أن الاغتراب يتولد ويتكرر عبر نطاقات متعددة – من اليومي الحميم إلى الديناميات المالية العالمية. ويقابله أيضاً نضال على مستويات متعددة: تنظيمات قاعدية، واتحادات، وحركات وطنية، وتضامن عابر للحدود.

سوف نستخدم الأداة الثلاثية "الشكل-الوظيفة-البنية" للتحليل التنظيمي، حيث يمثل الشكل التصميم التنظيمي (هرمي، أفقي، خلايا)؛ وتمثل الوظيفة الدور الاجتماعي (تحريض، إنتاج، حكم)؛ أما البنية فتمثل علاقة التنظيم داخلياً وخارجياً (شبكات اتحادية، سلطة مزدوجة). ستمكننا هذه الأداة من تمييز ما إذا كانت المواصفات التنظيمية تُعيد إنتاج الاغتراب (بيروقراطية)، أم تُسهم في تفكيكه (تعزيز ومشاركة واستقلالية).

الركيزة المنهجية الثالثة تكمن في تحليل التقنيات: التقنية الاجتماعية مقابل التقنية المضادة. تُنتج الأولى الاغتراب والانضباط الذاتي، بينما تطوّر الثانية فاعلين سياسيين. يجب فحص الأدوات التربوية والإعلام والطقوس والبنية التحتية وليس فقط الخطاب أو الشكل المؤسسي.

لهذا التحليل سيتم استخدام عدد من الأدوات، وتشمل، إلى جانب المقاربة النظرية: الإثنوغرافيا، لتوثيق مظاهر الاغتراب في الحياة اليومية؛ والتحليل المؤسسي والخطابي، للكشف عن التقنية والمنطق التنظيمي؛ والتحليل التنظيمي، لتفكيك مثلث الشكل-الوظيفة-البنية. وستتم دراسة قدرة فاعلي التغيير المجتمعي على إعادة تنظيم الحياة على مستويات متعددة مثل تفكيك بنى الاغتراب، وابتكار تقنيات جديدة للعيش والعلاقات والمقاومة.

## فاعلو التغيير المجتمعي في فلسطين

ليست فلسطين بمنأى عن الاتجاهات العالمية، فقد شهدت انخفاضاً في المشاركة الحزبية، وتراجعاً في التطوع، ومداً في دور المنظمات غير الحكومية، تلاه جزر نسبي. لكن معظم الدراسات ركّزت على

---

[57] Lih, *Lenin Rediscovered*.

[58] Chayanov, *The Theory of Peasant Economy*.

[59] Kayden and Antsiferov, *The Cooperative Movement in Russia During the War*.

المستوى المحلي ولم تُحلل الآثار النطاقية التكاملية[vi]، وغالباً ما أرجعت الظواهر إلى "عملية أوسلو" دون وضعها في سياق تاريخي عالمي موازٍ، ولا حتى في سياقها التاريخي المحلي.

رغم ذلك، تُعد فلسطين موقعاً غنياً لدراسة فاعلي التغيير المجتمعي. فإلى جانب تراجع الأحزاب خلال العقود الأربعة الأخيرة، نشأت أشكال تنظيمية جديدة أو مستجدة متنوعة لمحاولة إحداث تغيير، مثل الميليشيات، والحركات الإسلامية الإحيائية، والتنظيمات القاعدية، والتعاونيات غير المسجلة، والإضرابات القطاعية، والحركات الاجتماعية قصيرة العمر. غير أن هذا التنوع لم يُدرس كثيراً من زاوية علم الاجتماع التنظيمي المقارن، وتسعى هذه الدراسة إلى معالجته ضمن أمور أخرى.

---

[i] التحليل متعدد النطاقات يشرح ديناميكيات القوة التي تفسّر تشكيل وتحولات الترابطات الممتدة عبر وحدات حكم متعددة، مع إبراز الديناميكيات الكامنة وراء تراكم رأس المال. يمكن لكل موقع أن يكون نقطة دخول محتملة في تحليل المؤسسات والوكلاء المتشابكين داخل العمليات المتبادلة التي يتم من خلالها إعادة تشكيل وتحديد وحوكمة الوحدات الإقليمية، والمؤسسات، والعلاقات الاجتماعية، وحيوات الأفراد.

[ii] في النسخة الفرنسية الأصلية من كتاب معذبو الأرض لفانون، استخدم فانون مصطلح الممارسة الثورية (praxis)، لكنه أُزيل من الترجمة الإنجليزية الصادرة عام 1963.

[iii] مصطلح "التنظيم الذاتي العقلاني" self-rationalization المنسوب عادةً إلى مانهايم، هو في الحقيقة مصطلح استُخدم لوصف وتلخيص أعماله، وقد استخدمه للمرة الأولى سي. رايت ميلز.

[iv] يصف إريك وولف القوة البنيوية بأنها "القوة التي تنظّم وتنسّق الأُطر نفسها"، والتي تؤثّر في العلاقات الاقتصادية، والمؤسسات السياسية، والمعايير الثقافية. فهي شكل من أشكال السلطة، لا يقتصر مفعوله على العمل ضمن الأُطر أو المجالات، بل ينظّم ويُنسّق الأُطر ذاتها، ويحدّد توزيع وتوجيه تدفّقات الطاقة. أعتقد أنّ هذا هو الشكل من القوة الذي تحدّث عنه ماركس عندما أشار إلى قوة رأس المال في تسخير وتوزيع قوة العمل، وهو يشكّل الخلفية لمفهوم ميشيل فوكو للسلطة بوصفها القدرة على "تحديد الحقل الممكن لفعل الآخرين".

[v] الأرتل هو شراكة مجتمعية إنتاجية يتم فيها اجتماع العاملين ومعداتهم للقيام بمهام مثل الصيد، وقطع الأخشاب، والزراعة، والدرس أو الطحن، وغيرها، وهو شكل قديم للتعاونيات الحرفية، وقد اتخذ لاحقا شكل الكولخوز في مجال الزراعة في الاتحاد السوفييتي.

[vi] الاستثناء الظاهر هنا هو الدراسات المتعلّقة بحركة المقاطعة (BDS) التي تركّز على التأثير العالمي للحركة، لكنها نادراً ما تتعمّق في نضالات المقاطعة المحليّة.

## المصادر


Alifieraki, Dimitra. "'Towards a Methodology of the Problem of Organisation': The Organisation as a Defetishising Machine." Dissonância: Revista de Teoria Crítica 7 (December 31, 2023): 1–9.

Bishara, Azmi. "On the Precedence of Understanding Over Method." AlMuntaqa 2, no. 1 (2019): 89–105. https://doi.org/10.31430/almuntaqa.2.1.0089.

Burawoy, Michael. Manufacturing Consent: Changes in the Labor Process Under Monopoly Capitalism. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1982. https://press.uchicago.edu/ucp/books/book/chicago/M/bo23899991.html.

Çağlar, Ayşe, and Nina Glick Schiller. "Relational Multiscalar Analysis: A Comparative Approach to Migrants within City-Making Processes." Geographical Review 111, no. 2 (April 3, 2021): 206–32. https://doi.org/10.1080/00167428.2020.1865817.

Chayanov, A. V. The Theory of Peasant Economy. 1st edition. Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1986.

Edwards, Richards. Contested Terrain. New York: Basic Books, 1980.

Fanon, Frantz. The Wretched of the Earth. 3rd ed. New York: Grove Press, 1964.

Federici, Silvia. Re-Enchanting the World: Feminism and the Politics of the Commons. Oakland, California: PM Press, 2019.

Ferro, Marc. October 1917: A Social History of the Russian Revolution. London: Routledge & Kegan Paul Books, 1985.

Giddens, Anthony. Sociology. 5th Revised edition. Cambridge, UK: POLITY PRESS, 2006.

Gramsci, Antonio. Prison Notebooks. Translated by Joseph A. Buttigieg. Slp edition. New York, NY: Columbia University Press, 2011.

Habermas, Jürgen. The Theory of Communicative Action: Reason and the Rationalization of Society, Volume 1. Volume 1 edition. Boston, Mass: Polity, 1991.

Harvey, David. A Brief History of Neoliberalism. Oxford: Oxford University Press, 2007.

———. The Condition of Postmodernity: An Enquiry into the Origins of Cultural Change. Cambridge, Mass.: Wiley-Blackwell, 1991.

———. The New Imperialism. 1. issued as paperback. Oxford: Oxford Univ. Press, 2005.

Kayden, Eugene M., and Alexis N. Antsiferov. The Cooperative Movement in Russia During the War. 1st ed. New Haven: Yale University Press, 1929.

Lefebvre, Henri. Critique of Everyday Life, Vol. 1: Introduction. Translated by John Moore. London: Verso, 1991.

———. Critique of Everyday Life, Vol. 2: Foundations for a Sociology of the Everyday. London ; New York: Verso, 2008.

Lefebvre, Henri, and Christine Levich. "The Everyday and Everydayness." Yale French Studies, no. 73 (1987): 7–11. https://doi.org/10.2307/2930193.

Lenin, V. I. What Is to Be Done? Illustrated edition. Martino Fine Books, 1929.

Lenin, Vladimir. Imperialism, the Highest Stage of Capitalism. 2nd ed. Vol. 1. Moscow: Progress Publishers, 1916.

———. "The Dual Power." In Lenin Collected Works, translated by Isaacs Bernard, 24:38–41. Moscow: Progress Publishers, April 9, 1917. https://www.marxists.org/archive/lenin/works/1917/apr/09.htm.

———. "Where to Begin?" In Lenin Collected Works, 5:13–24. Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1961.

Lih, Lars T. Lenin Rediscovered: What Is to Be Done? In Context. Chicago IL: Haymarket Books, 2008.

Lukács, Georg. History and Class Consciousness: Studies in Marxist Dialectics. Translated by Rodney Livingstone. MIT Press edition. Cambridge, Mass: The MIT Press, 1972.

Mannheim, Karl. Diagnosis of Our Time: Wartime Essays of a Sociologist. 0 edition. Kegan Paul, Trench, Trubner & Co. , Ltd., 1943.

Marcuse, Herbert. One-Dimensional Man: Studies in the Ideology of Advanced Industrial Society, 2nd Edition. 2nd edition. Boston: Beacon Press, 1991.

Martins, Herminio. "Time and Theory in Sociology." In Approaches to Sociology: An Introduction to Major Trends in British Sociology, 246–94. New York: Routledge, 1974.

Marx, Karl. Capital: Volume 1: A Critique of Political Economy. Pengiun Classics, 1992. https://www.amazon.com/Capital-Critique-Political-Economy-Classics/dp/0140445684/ref=sr_1_1?s=books&ie=UTF8&qid=1520326290&sr=1-1&keywords=das+capital+karl+marx.

———. Grundrisse: Foundations of the Critique of Political Economy (Rough Draft). Translated by Martin Nicolaus. Vol. Notebook M. 7 vols. Penguin Books in association with New Left Review, 1857. https://www.marxists.org/archive/marx/works/1857/grundrisse/index.htm.

Marx, Karl, and Fredrick Engels. The Economic and Philosophic Manuscripts of 1844 and the Communist Manifesto. Translated by Martin Milligan. First Edition. Amherst,N.Y: Prometheus, 1988.

Mills, C. Wright. The Sociological Imagination. 40th anniversary edition. Oxford England New York: Oxford University Press, 2000.

Nisbet, Robert. The Quest for Community: A Study in the Ethics of Order and Freedom. New York: ISI Books, 2010.

Nkrumah, Kwame. Neo-Colonialism: The Last Stage of Imperialism. Later Printing edition. New York: International Publishers, 1966.

Perrow, Charles. "A Society of Organizations." Theory and Society 20, no. 6 (1991): 725–62.

Pries, Anne, ed. "The Cooperative Movement in Russia: A Microfiche Collection of Works That Illustrate This Movement That Was Very Successful in Russia in the Late 19th and Early 20th Century." University of Leiden, 1990.

Putnam, Robert D. Bowling Alone: The Collapse and Revival of American Community. London: Touchstone Books by Simon & Schuster, 2001.

Rabinowitch, Alexander. "The Bolsheviks Come to Power in Petrograd: Centennial Reflections." Economic and Political Weekly 52, no. 44 (2017): 43–48.

Selznick, Philip. The Organizational Weapon: A Study of Bolshevik Strategy and Tactics. Quid Pro, LLC, 2014.

Siegelbaum, Lewis H. Soviet State and Society between Revolutions, 1918–1929. Cambridge: Cambridge University Press, 1994.

Skocpol, Theda. Diminished Democracy. Norman: OUP, 2004.

Smith, S. A. Red Petrograd: Revolution in the Factories, 1917-1918. Chicago, IL: Haymarket Books, 2017.

Strazzeri, Victor. "'The Phenomenon of Reification': Georg Lukács as a Marxist." Dissonância: Revista de Teoria Crítica 7 (2023): 1–19.

Suny, Ronald Grigor. The Structure of Soviet History: Essays and Documents. New York: Oxford University Press, 2014.

Tolbert, Pamela S., and Richard H. Hall. Organizations: Structures, Processes and Outcomes. 10th edition. Upper Saddle River, N.J: Routledge, 2008.

Trotsky, Leon. History of the Russian Revolution. Chicago, IL: Haymarket Books, 2008.

Wolf, Eric R. "Distinguished Lecture: Facing Power - Old Insights, New Questions." American Anthropologist 92, no. 3 (1990): 586–96.

———. Envisioning Power: Ideologies of Dominance and Crisis. Y First printing edition. Berkeley: University of California Press, 1999.